الحالة الاجتماعية لمسلمي كيرالا

حسن الفيضى فنفارا

انتشر الإسلام بسرعة فائقة في بلاد كيرالا، وهي أرض خصبة للدعوة الإسلامية، لأن مبادئ الإسلام وقيمه الإنسانية مثل الأخوة والمساواة جذبت قلوب المواطنين الذين كانوا يعيشون فى العبودية والاضطهاد حسب دينهم الذى فرق الناس طبقات متفاوتة وأكثرهم فى الطبقة الرذيلة لا يستحقون حقوق الإنسان وكرامته، ومع ذلك ان الملك شيرمان أرسل رسالة قبل وفاته إلى أقربائه الذين تولوا الملك بعده باعطاء التسهيلات والمساعدات للدعاة المسلمين ، هكذا تلقى الإسلام قبولا حسنا وترحيبا هنيئا من أبناء هذا البلد ، وكان انتشاره على سبيل السلم بلا مواجهة حرب خلاف ما تعرض المسلمون فى سائر أنحاء العالم فى سبيل الدعوة الإسلامية .

لما انتشر الإسلام فى بلاد ساحل البحر العربى اشتدت العلاقات التجارية بين العرب وبين هذه البلاد طبعا ، كان المسلمون تجارا يبادلون البضائع للعرب وكان حقل التجارة محتكرالهم وصاروا فى أحسن حالة اقتصاد ا وازدهرت حياتهم بهجة وسرورا، استمرت هذه الحالة حتى قدوم الأوربيين فى اوائل القرن السادس عشر.

ومن المعلوم أن الإحتلال الغربي لسائرالدول الذى بدأ فى القرون الوسطى استهدف ثرواتها . أما الإستعمارالأوروبى إلى العالم الإسلامى ليس لثروتها فحسب، بل فيه عداوة النصارى وحقدهم على الإسلام والمسلمين وهو من بقايا الحروب الصليبية كما نرى اليوم فى العراق وأفغانستان وسائر البلاد المسلمة .

إستعمرت الدول الأوروبية بلاد الهند لنهب ثرواتها ولتحطيم المسلمين الذين كانوا حاكمين فى معظم بلاد الهند ، وحرض البطارق قوات الإحتلال على قتل المسلمين واستئصا لهم ، ولذا نجد فى التاريخ أن المستعمرين كانوا أشد عداوة للمسلمين ، والمسلمون أشد مواجهة ضد الإستعمار. وكان أول من احتل هذه البلاد البرتغاليين وكان مسلمو كيرالا فى مقدمة مواجهة الإستعمار. لان الإحتلال وقع فى هذه البلاد

بداية ، وشن البرتغاليون على المسلمين ظلما وجورا لا مثيل له فى التاريخ . فنهض المسلمون لمواجهة الإحتلال تحت قيادة مركار وامتدت هذه الحروب ضد البرتغاليين قرنا واحدا فى البر والبحر، واحمر ماء البحر العربي بدماء المسلمين ، ولم يكتف قوات الإحتلال بقتل المقاتلين ، بل شنوا ظلمهم على المسليمين كافة حتى النساء والأطفال ، وحاولوا لتدمير المسلمين فى كل مجال ، وحطموا مصادر اقتصادهم وأبادهم من حقل التجارة ، وساد الفقر والخوف والفوضى .

بعد إبادة متاجر المسلمين اضطروا الى الأعمال الزراعية . ومن المعلوم أن الأرض الزراعية كانت محتكرة للهنادك العليا مع أن القانون منح لأصحاب الأراضي فرصة لإستغلال العمال . وكان العمال المسلمون واصحاب الطبقات الرذيلة من الهنادك يعملون في المزارع كالبهائم او أدني حالة منها . وثمرة عرقهم تملأ خزائن مالك الأرض مع أنهم يتجرعون الفقر و الجوع طول عمرهم . و قوات الإحتلال ساعدت أصحاب الأرض في كل نشاطاتهم الظالمة ، وكانوا جنبا بجنب في اضطهاد العمال وانتهاك حقوقهم . ومطالبة الحقوق والمقاومة لها كانت محظورة حسب القانون. في هذه الظروف الحالكة نهض المسلمون أيضا لحمل السّلاح ضدالإستعمار، واستمرت هذه الحروب زهاء أربعة قرون . و واجه المسلمون كل قوى الإحتلال من البرتغال وهولندا وافرنج وبريطانيا. ومن اشهر قادة المسلمين في هذه الفترة اسرة مركار والسيدعلوي المنبرمي وابنه السيّدفضل والقاضي عمر وأني موسي وحسن كركل وغيرهم من الأبطال.

وكانت اخر حملة من هذه الحملات حروب الخلافة التي إمتدت ستة اشهر في سنة ١٩٢١ ، قبل هذه الحملة جرت في ملبار زهاء ثلاث مأة حروب ضد الإستعمار . وكانت حملة الخلافة شديدة ودامية من سائر الحروب . وكانت الهند حينئذ تحت الحكومة البريطانية . واعلن قائد حركة الخلافة الأستاذعلي مسليار استقلال ملبار من الحكومة البرطانية . ونشبت الثورة في طول البلاد وعرضها ، وانقلبت حركة ترك الموالات التي أعلنها مهاتماغاندي مقاومة سلاحية في ملبار، و واجه الثوار قوات الإحتلال البريطاني في مواضع عديدة. ولكن الحكومة البريطانية استطاعت لاطفاء نار الثورة بإرسال ربع الجيش البريطاني إلي منطقة ملبار موفورة بأسلحة حديثة مع أنّ الثوار كانوا أعزالا ليس في أيديهم الإ بنادق قديمة معدودة . قام الجيش

البريطاني باعمالهم الشنيعة والوحشية ضد المسلمين بلا تفرقة بين الثوار وغيرهم وقتل الآلاف واعتقل اكثر منهم وسجنهم وابادهم الي اما كن بعيدة لاتصلح للعيش مثل جزر الأندمان في هذه الفترة . ضاق عيش المسلمين وساد الجوع والفقر والمرض بينهم حتي الأحياء حسدوا على الأموات لخلاصهم من مضرة العيش بالموت.

لمّا إشتد العيش وضاق مجال الكسب سافر كثير من هذه المنطقة إلي بلاد متجاورة في الهند وخارجه مثل بورما وسلون وماليزيا وسنغافورة وكراتشي وممباي وغيرها ولكن ليس لهذه الهجرة تأثير عميق في حياة مسلمي كيرالا.

بعد حركة الخلافة لما وضع الحروب اوزارها وضاق عيش المسلمين وكثرت الأيتام والأرامل وانحطوا في جميع قوام الحياة، قام زعماء المسلمين بدورهم وجادلوا مجادلة شديدة لنهضة الأمة المسلمة ونظموا هيئات دينية واجتماعية وأسسوا معاهد دينية وتعليمية ودور الأيتام والمساكين ومن أهم المنظمات الدينية جمعية العلماء بعموم كيرالا بهذه النشاطات العظمي وبالأعمال الجادة كانت الأمة المسلمة تصعد من ورطة الحميم قليلا قليلا.

استقلت الهند عام ١٩٤٧ ولكن بالأسف، كان الاستقلال بتفرق الهند إلى هندوستان وباكستان وجرت إضطرابات طائفية في البلدين، خاصة في الهند، وعاش المسلمون مضطهدين شديدا نتيجة لهذا التفريق، ولا يزالون يدفعون فاتورته حتى الآن على أن المفرقين حقيقة هم الهنادك المتطرفة الذين أرادوا إبعاد المسلمين من المساهمة فى حكومة الهند بعد الاستقلال كان معظم زعماء المسلمين فى باكستان مع أن ثقل التفريق على أكتاف المسلمين بقوا في الهند بعد التفريق، وكانوا كالأنعام بلا راع. والاضطرابات الطائفية التي نشبت فى الهند بعد الاستقلال ليست اضطرابات محضة، بل تهدف إلى استأصال عرق المسلمين. يا للأسف كان الشرطي وقوات الأمن مع الظالمين جبهة واحدة ضد المسلمين بدلا للدفاع عن المظلومين والملهوفين. وكانت أهداف هذه المظالم أن يوقع المسلمين فى الخوف والفوضى وأن يدمر مصادرهم الإقتصادية وأن يخلفهم دينيا وثقافيا واجتماعيا رغم هذه المحاولات التى جرت طول بلاد الهند وعرضها نرى صورة مخالفة فى كيرالا لأن مسلمى كيرالا فى سبيل التقدم والترقى يوما فيوما فى مجال شتى بعد الإستقلال.

أنعم الله مسلمى كيرالا بزعماء المخلصين العاملين فى مجال الدينية والسياسية وكانوا متميزين بمزية قويمة ونشاطات قوية وبرئاسة حميدة وكذا العامة اصطفوا

خلفهم طائعين أوامرهم وسامعين نصائحهم بهذه المميزات استطاع مسلمو كيرالا للتقدم فى مستوى حياتهم ولحل مشاكلهم وهم يعيشون حياة سليمة بالتعايش والتعاون مع سائر الأمم وهم يتمتعون حرية الدينى التى تمنحها الدستور العلمانية

تقدم المسلمون رويدا بعد الإستقلال والمشكلات المالية التى أورثتها الحروب عرقلت نهضات المسلمين لأنهم خاضوا فى معارك الإستقلال حتى تركوا ثقافتهم ولغتهم هذه المواقف صيرتهم متخلقين فى مجال التعليم طبعا عند إستقلال الهند كان المسلمون غير مأهلين لتولية وظائف الحكومة شرع مسلمو كيرالا بناء صرح مجدهم وتأسيس كيانهم مع العزة وإن كانوا قلة بالعَدد والعُدد . بعد محاولات جادة ونشاطات قوية ظهرت أثمارها قليلا فى المجتمع الإسلامى ولكن كثر عدد المسافرين إلى الخليج بعد السبعينات فى القرن العشرين حين تقدم هذه الدول إقتصاديا . هذه الظروف أطاحت لمسلمى كيرالا فرصة ذهبية لتحسين أحوالهم . هذه الهجرة أثرت فى حياتهم تأثيرا بليغا وكثر فيهم أغنياء الجدد وساهموا فى إنشاء المعاهد التعليمية وازدهرت نشاطات المنظمات الدينية والاجتماعية بتبرعاتهم ومساعداتهم . علاوة على هذا نتذكرمع الشكر الجزيل أن العرب لما تقدموا اقتصاديا منحوا عطيات وافرة ومساعدات عظيمة لإغاثة مسلمى كيرالا فى مجال الديني والتعليم.

فى العقود الأخيرة من القرن العشرين زادت فى مسلمى كيرالا نشاطات تعليمية دينيا وماديا منها المدارس الإبتدائية والثانوية والكليات ومراكز تدريب المهن وكثرت المنظمات الدينية وهيئات التعليمية والخيرية واشتدت القوى السياسية وانتبهوا إلى أهمية المساهمة فى وظائف الحكومة. وكثرت المحاولة لنيل حقوقهم الدستورية على الديموقراطى وكانوا فى التقدم فى كل مجال الحياة من سائر مسلمى ولايات الهند تثقل أكتافهم حمائل التخلف والفقر وهم مغرقون فى ظلمات الجهل خائفين الإضطهاد والإستأصال من قبل الأعداء

ولا نقول إن مسلمى كيرالا نالوا غاية أهدافهم وهم فى حد سواء مع سائر الأمم المتقدمة فى مستوى الحياة ولكنهم جاوزوا مسافة طائلة فى سبيل النهضة . وعليهم استمرار السير والسعي بلا وقوف ولا رقود لأنهم فى ميدان المسابقة مع سائر الأمم الذين سابقوا أميالا. وعلى المسلمين أن يوحد كلمتهم لإنقاذهم من التخلف والإنحطاط ولإبادة الجوع والفقر من بينهم ولحفظ كيانهم والذود عن دينهم وهويتهم على الرغم من اختلاف فرق الدينية والسياسية وأن نتذكر قول الله جل شأنه إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .